تجسيد المعنى بالنغمة والصورة
كلغة لطفل ما قبل المدرسة

إعداد/ السيد القماحي[1]

أولاً : ما هو الطفل ؟

يقول علماء التربية: الطفل هو ما كان منذ الولادة، حتى سن البلوغ .

ويقولون أيضاً: والطفل هو ما كان منذ سنتين حتى ست سنوات وتسمى هذه المرحلة : الطفولة المبكرة .

- ومن ست سنوات حتى اثنتي عشرة سنة، وتسمى الطفولة المتأخرة .
- ومن اثنتا عشرة سنة، حتى خمسة عشرة، وتسمى بداية المراهقة .
- ومن خمسة عشر حتى ثمانية عشرة، تسمى مرحلة وسط المراهقة .
- ومن ثمانية عشرة، حتى اثنين وعشرين، وتسمى مرحلة المراهقة المتأخرة .
- وما يهمنا الآن، بعد مرحلة التعريف لمراحل الطفل، هو طفل ما قبل المدرسة .

أو مرحلة ما قبل (الشخبطة بالقلم):

في هذه المرحلة، يتجسد المعنى المراد نقله إلى الطفل، بالنغمة والصورة . . أو هكذا ما يجب أن يكون .

وفي هذه المرحلة، يتمكن الطفل، طفل ما قبل المدرسة، من سماع القصص والعبارات الصوتية المنغومة . . كما تشده الصور الملونة الجذابة، ويحاول أن يقلد من حوله في حركاتهم، وفي أعمالهم، وفي أصواتهم .

وفي هذه المرحلة . . يمكن تقديم الأغاني البسيطة، ونوع من القصص المسجل، والبرامج المعدة بالصوت والصورة، لموضوعات مختارة، لهذه المرحلة، موضوعات مناسبة بمفرداتها، وأسلوبها بشرط أن تكون ممتعة ومفيدة وجذابة .

ولأن خيال الطفل، في هذه المرحلة، يكون محدوداً، وتفكيره أيضاً، لذا يمكن استخدام الأشياء المحسوسة، والموجودة في البيئة المحيطة، لتجسيد المعاني، والقيم التي نريد نقلها إلى الطفل .

---

(1) مؤلف للطفل، عضو اتحاد الكتاب، ونادي القصة وجمعية الرعاية المتكاملة (المجلس المصري لكتب الأطفال).

Obeikandi.com

مثلاً :

نقدم البطة الكبيرة، وهي تُعني بصغارها، بحمايتها لهم، وإطعامها إياهم، وملاعبتهم، والدفاع عنهم ضد مَن تسول له نفسه، بالاعتداء عليهم من القطط، وغيرها .

عندئذ . . يتعلم الطفل، معنى العطف، ومعنى الحماية، ومعنى الدفاع عن حق الوجود، مع لفت نظره، بأن الله هو الذي خلق البطة، وغيرها من سائر المخلوقات، كما هو الذي خلق الطعام، الذي يأكلونه، والماء الذي يشربونه .

وهنا يتعلم الطفل، العلاقة بين هذه المخلوقات وخالقهم، وبين الله ومخلوقاته . . بما في ذلك المخلوقات من البشر .

هذه المعاني . . تنقل إلى الطفل، مجسدة، في الكتب المصورة، أو الناطقة مع الصور . . وإلى جانب الحكايات القصيرة الشارحة بالأسلوب البسيط الشفوي من الأم . . أو المربي .

وقد يستمع الطفل، إلى القصة من أمه، ويتابعها مشاهدة في الكتاب المصور، أو يشاهد القصة كلها مصورة بدون كلمات عنها، شفهية أو غير شفهية، ويترك لخياله متابعة أحداثها، من تتابع الصور وحدها .

وكما سبق القول، لا يكفي أن تكون الحكايات المسموعة، بالسرد فقط، بل تحتاج إلى نوع من التلوين الصوتي، الذي يساعد على تصور المواقف، وتجسيدها، وعلى تمثل الأحداث، ونقل المشاعر والانفعالات، ورسم الأجواء المحيطة بالحوادث .

ومن الأفضل، توفير أصوات مساعدة، معبرة ومجسدة، عن طريق تسجيل أصوات حقيقة، لمظاهر الطبيعة، مثل أصوات الرياح، وأصوات الحيوانات، والطيور، أو أصوات حركات معينة، لشخصيات قصة أو حدوتة، أو عن طريق تقليد هذه الأصوات من قِبل الأم، أو المربية، أو الجد، أو الجدة .

وإذا صاحبت هذه الأصوات، صور تمثيلية معبرة، أو صور واقعية بالفيديو، كأن تأثيرها أكبر .

الآن جهاز الكمبيوتر، قد حل محل (الفيديو) . . حيث يمكننا وضع (الديسك) أو (الأسطوانة) في هذا الجهاز، لنشاهد ما نريد مشاهدته أو سماعه .

وكلما كانت اللغة، لغة الحدوتة، أو القصة، في معظم الأحوال، منغومة، مسجوعة، مغناه، كلما كان تأثيرها أعظم .

وكلما كان السرد، قصصياً، بأحداث وشخصيات، ومفاجآت . . ، كان التأثير أوقع .

ذلك لأن النص، خصوصاً، إذا كان لطفل ما قبل المدرسة، وباستخدامه لوسائل التجسيد هذه فإنه يقرب ما بين السارد، أو الحاكي، وبين المحكي عنه، اجتماعياً، ونفسياً، وروحياً.

كما يقرب ما بين عقل الطفل، والمفاهيم المجردة، كما يقرب – أيضاً – بين الطفل، والعالم الخارجي.

الأمر الذي يحرره ـ أي يحرر الطفل ـ من حدود عالمه الضيق، وينقله إلى عالم رحب، متسع، في الشارع، والمدينة، والغابة، والصحراء، والبحر، ثم إلى عالم البشر، بخيره وشره.

ثم ونحن نحكي ..

فنحن نجسد ما نحكيه، بالصوت والصورة، وكل ينطبع في عقل ووجدان الطفل، ويسجله خياله، وينضم إلى عناصر تفكيره، وخبرته، وقيمه، كمل يشكل عناصر سلوكه، حالياً ومستقبلاً.

فحين تدافع البطة، أو الدجاجة، عن صغارها، مثلاً في قصة مسموعة، أو مصورة، فهذا مثال لقيمة الدفاع عن النفس، ومثال لقيمة الدفاع عن الصغير وعن الضعيف، ومثال لواجب التصدي للمعتدى، ولو ملك قوة متفوقة.

وكما في هذا المثال، تكمن قيمة الدفاع عن الحياة، تكمن قيمة الرحمة، والحنو والمساعدة، وقد تشربها الطفل، بطريقة غير مباشرة.

والصورة المقدمة للطفل، تعني نقلها من الواقع الحي إلى الورق، في كتاب أو مجلة، أو نقلها إلى الشاشة، على جهاز كمبيوتر.

وتعني أيضاً، هدف التركيز عليها، ليتأملها الطفل، وكأنه يراها، لأول مرة.

فهو مثلا . . يرى الدجاجة، أو يرى الكلب، أو القطة، في الواقع الحي . .

ولكنه يراها، كائناً متحركاً، في زحمة الكائنات الأخرى، مع البشر والشجر، والبيوت إلى أخره، فلا يتم التركيز عليها.

لكن عندما يراها، مصورة أو مرسومة مستقلة، في كتاب، أو مجلة، أو على شاشة، فإن نظره، ووجدانه، ينسحب للتركيز عليها، وكأنما يتساءل: (لماذا هذه هنا؟) . . ومن ثم، يتهيأ لفهمها، واستيعاب تفاصيلها، في جسمها، وحركاتها، وأصواتها، وجميع أحوالها، حبذا في إطار حدوتة جاذبة.

وإذن ..

حين يرى الطفل الكائن المصور أو المرسوم، وسط كائنات، في الطبيعة الحية، فهي الرؤية العشوائية.

وحين يراه، في كتاب أو مجلة، أو على شاشة، فهي الرؤية المنظمة المركزة المستوعبة.

وهذه الأخيرة، هي ما يأتي منها العلم والمعرفة، في هذه المرحلة، وفي المراحل التالية أيضا.

النغمة والمعنى في لغة الطفل:

كما يهتدي الطفل إلى أمه عن طريق صوتها، يهتدي كذلك إلى معنى الشيء، وإلى صورته، عن طريق النغمة، فنغمة الصوت، هي كصوت جديد، أو هي صوت منغوم بنغمة خاصة، تميزه وتميز المعنى الذي قصد به.

فعندما نقول، أمام الطفل، (نَو . . نَو)، مثلا مقلدين صوت القطة، تقفز إلى ذاكرته صورة القطة دون شرط، لوجود القطة نفسها أمامه في الواقع.

كذلك عندما نقول أمامه، (هَو . . هَو) تقفز إلى ذهنه صورة الكلب.

وبالمثل . . عندما تريد إيصال معنى من المعاني للطفل، نغير من نغمات صوتنا، مما يربط هذه النغمة، بهذا المعنى المقصود، برباط قوي.

والهدف هو التجسيد، والجذب، ولفت الانتباه، وتحريك العقل والشعور، لدى الطفل، لتوصيل معنى ما، فنغمة صوت الزئير للأسد، مثلا، تستدعي إلى ذاكرة الطفل، صورة الأسد، وأحواله، بل والمكان الذي شاهده فيه الطفل لأول مرة، على الشاشة، أو في حديقة الحيوان.

هذه النغمات الصوتية إذن، بمثابة إشارات شأنها شأن اللغة أو الكلمات الدالة، على أشياء محددة.

وهنا، يمكن للكلمة الواحدة، أن تشير إلى أكثر من معنى . . فهي حين تكون بنغمة معينة مقصودة، تشير إلى معنى مختلف نريده.

فمثلا حين نقول (أسد) بنغمة تضخيم، فهذه تشير إلى أسد قوي ضخم.

وحين نقولها برقة، فنحن نغني بها أسداً طيباً عاديا، بما يوحي بالمسالمة . . وهكذا.

الكلام المنغوم شعراً في النوم والتعليم:

وكما كانت أداة الكلام المنغوم، وسيلة فاعلة لنوم الطفل الصغير، مع الهدهدة، والمناغاة، كذلك، كانت النغمة الشعرية وسيلة، لأهداف شتى، تربوية وترفيهية، وتعليمية، الخ.

ففي الناحية التربوية، نرى الشاعر، محمد الهراوي يكتب للطفل، في تحية الأم في العام الجديد.

يقول :

أمُ يــا نــور حياتـــي	..	**طبــت بالعــام الجديـــد**
فخــذي مـــني وهـــاتي	..	**قبلـــة العيـــد الـــسعيد**

وأيضاً تحية للأب .

يقول :

تحيـــة يـــا والـــدي	..	**في عامـــك الجديـــد**
أهـــدي إليـــك زهـــرة	..	**فيهـــا تهـــاني العيـــد**
تعـــرب عـــن محـــبتي	..	**مـــن قلـــبي الـــودود**

وكانت أداة الكلام المنغوم شعراً، من أكثر الأدوات الجمالية، استخداما، في مجال تعليم الأطفال، خاصة لسن ما قبل المدرسة .

كما في شعر شاعرنا محمد الهراوي، وها هو ذا مثال آخر في مجال تعليم الحروف الهجائية .

يقول عن حرف الألف :

فألف في أرنب
قد اشتراها لي أبي

وفي حرف الباء :	**وفي حرف التاء** :
والباءُ مثل بقرة	والتاء مثل تاج
تأكل تحت الشجرة	من ذهب وهاج

وهكذا . . .

ويقدم الشاعر محمد الهراوي . أنشودة على لسان طفلة صغيرة تهدهد دميتها :

يــا دمــيتي يــا خــيرة	**يــا طلعـــة منـــورة**
لـــك عيـــون حلـــوة	**براقـــة مـــدورة**
وفيـــك شـــعراً أصـــفر	**ســـبيكة مـــضفرة**

وكما نرى توظيف الكلام الشعري، والكلام العادي المنغوم، في الأهداف التعليمية والتربوية، نراه أيضاً في مجالات الترفيه واللعب أيضاً .

مثال :

واحد أتنين خرجي مرجي . . . أنت حكيم ولا تمرجي

ومثال :

يا هوا يا سبيسي . . . نشف لي قميصي

لأمي تضربني . . . وبابا يدبحني

والمعزة تحوش عني

ومثال :

حطة يا بطة . . . يا دقن القطة

سعيدة جاية . . . م الغربية

وأدي الزير . . . وأدي غطاه

وأدي النبي . . . اللي إحنا حداه

وهكذا تتحد أدوات النغم، في الكلام العادي والشعري، مع الصور الجميلة الجذابة، المرسومة في كتاب أو مجلة، ليجسد هذا كله، معنى أو صورة أو قيمة، أو متعة للطفل الصغير .

وهذا يعني . . . إننا كلما اقتربنا من الطفل بالفطرة، وبالفن، لتقديم رسالة ما، كلما نجحنا في توصيلها له كما ينبغي باللغة التي تصل إلى شعوره قبل عقله .

المراجع:

- أدب الأطفال تربية ومسئولية (محمد حسن بريغش) .
- محمد الهراوي شاعر الأطفال (أحمد سويلم) .
- الألعاب الشعبية في مصر (محمد عمران) .

obeikandl.com